العرب
الجمعة 2020/02/14
السنة 42 العدد 11617

«التنحي» آليات تقليدية لإنتاج عمل فني حداثي

الفنانة التونسية لينا بن رجب توظف التكرار بحثا عن المطلق

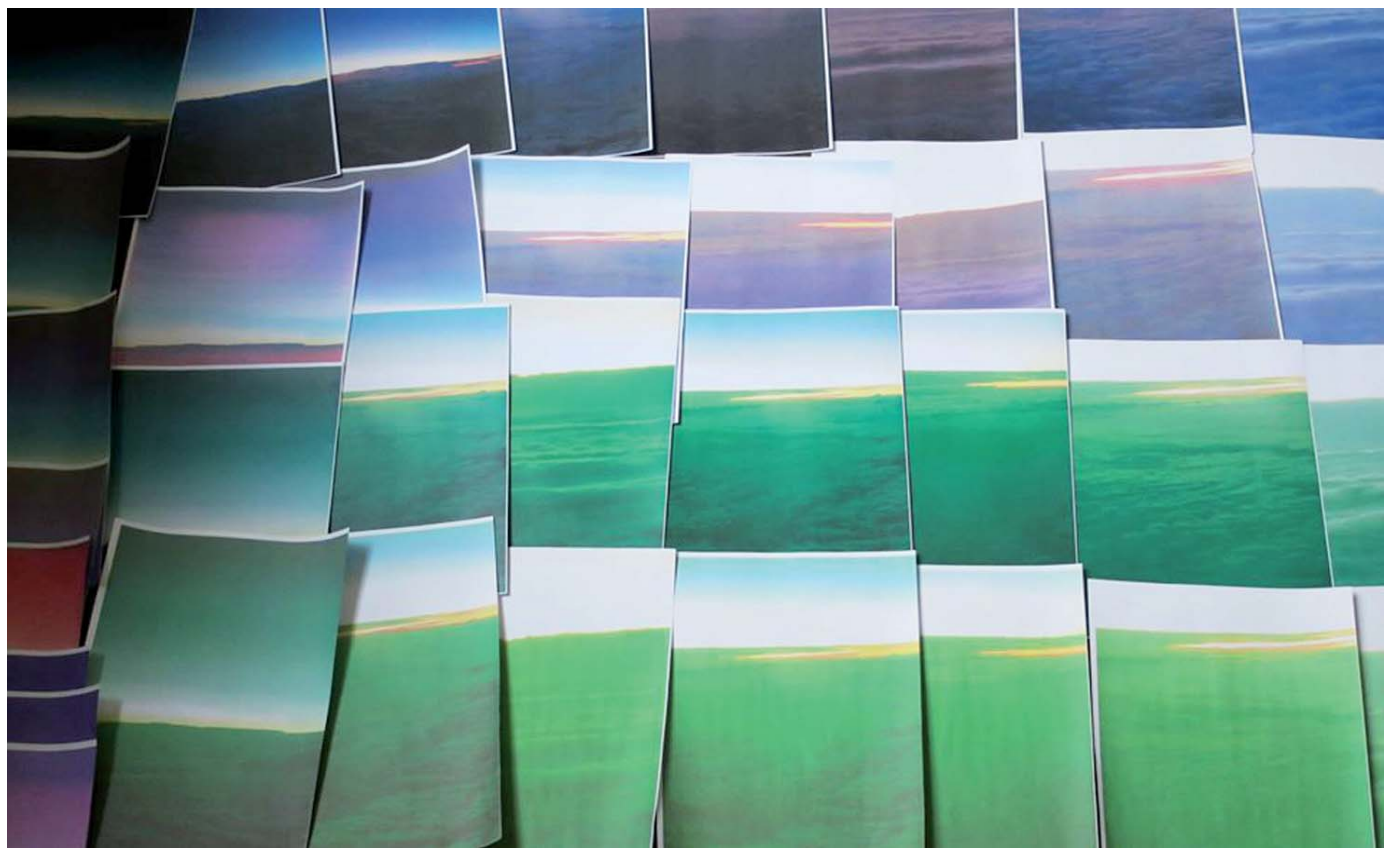

نسخة عن نسخة للسماء

جمع بين الحرفة وعمل الآلة

تكرار يعلن البدء مجددا

علي قاسم
كاتب سوري مقيم في تونس

الطريق إلى رواق سلمى فرياني في ضاحية سيدي بوسعيد يمر عبر أزقة متعرجة مرصوفة بحجارة بازلتية، تحيط بها جدران مطلية بالجير الأبيض، وأبواب زرقاء هي سمة بيوت القرية السياحية التونسية، الطريق الصاعد إلى الرواق قد يحبس أنفاسك. لكنه يضفي على زيارتك لمعرض الفنانة التونسية الباريسية لينا بن رجب، بعدا صوفيا، وكأنما هو جزء لا يتجزأ من العمل الفني.

يحتضن رواق سلمى فرياني في ضاحية سيدي بوسعيد قرب العاصمة التونسية، معرضا فرديا للتشكيلية لينا بن رجب، ويشغل المعرض صالات الرواق الثلاث.

يبرز المعرض قيمة التكرار في العمل الفني، ويحيلنا مباشرة إلى مفهوم أول ما تجسد في عالم الفن، كان من خلال الأعمال الفنية للفنان المُسلم.

هل أرادت لينا بذلك أن ترد الاعتبار لمئات بل آلاف الفنانين المغمورين الذين نفذوا تلك الروائع لتبقى أسماؤهم مجهولة، وبقيت أعمالهم مصنفة ضمن مفهوم الحرفة، رغم البعد الفلسفي لهذه الأعمال، التي شكلت البذرة الأولى لمفهوم التجريد.

ليس مؤكدا إن كانت الفنانة قامت بذلك عن وعي منها لقيمة تلك الأعمال، ولكن ما هو مؤكد أنها تفتح الباب أمام المتلقي المجتهد للربط بين أعمالها وبين روائع موزعة عبر العالم الإسلامي.

وبينما كان الهدف من أعمال الفنان المُسلم هو إضفاء مساحات زخرفية على جدران وسقوف صماء للأبنية، اختارت لينا أن تقدّم أعمالها ضمن أطر تحيل إلى اللوحة.

ومع ذلك يبقى الهدف التزييني واحدا. الاختلاف هو إعطاء اسم لكل عمل، بينما يبقى إنجاز الفنان المُسلم دون عنوان، مثلما كان أيضا مجهول النسب.

ولا نعلم إن كان الفنان المُسلم القديم قد انشغل بالبعد الفلسفي للتكرار، بنفس الوضوح الذي شغل الفلاسفة، من نيتشه إلى دريدا، فالتكرار عندهم يبرز البدء من جديد، المفهوم الذي طال بعدهم عالم الصناعة ليصبح الأساس في تقنيات الإنتاج الصناعي والفني، أو ما عرف بلغة الاقتصاد الإنتاج بالجملة (Mass Production). ولكن ما هو مؤكد أن التكرار بالنسبة للفنان المُسلم هو بحث عن المطلق واللانهائي، والذي يشكل جوهر الإيمان.

أكثر من تقنية

الفنانة لينا بن رجب في معرضها لم تتحدث عن الحرفة، بل تحدثت بلغة العصر عن الآلة، الآلة التي أزاحت الحرفيين جانبا، مستخدمة تقنيات متعددة تجمع بين الحرفة وعمل الآلة، مثل التطريز والتصوير الفوتوغرافي والنحت والطباعة، وكأنما بها تريد أن تبرز إمكانياتها الذاتية في ممارسة هذه التقنيات والحرف، مستعرضة فيها كيف آلت تلك الحرف لتصبح من مهمات الآلة. وفي نفس الوقت الذي استعرضت فيه حدود الإنتاج التكنولوجي، قامت باستكشاف العلاقة بين الفنان والآلة.

هل هي محاولة لأنسنة الآلة والمادة المستخدمة لتنفيذ العمل؟ هذا الأمر متروك للمتلقي يدركه قبل أن يتنحى جانبا. ويترك للآلة فسحة تكشف عن بعدها الإنساني.

عنوان المعرض "تنحى" يحيل هو الآخر إلى بعد فلسفي، ينسجم تماما مع البعد الروحي في أعمال الفنان المُسلم، الذي بعد أن يكمل عمله، كان يتنحى جانبا. الفنانة لم تتنح بالطبع جانبا، اسمها موجود على الأعمال، وكراسات الرواق، بخط بارز، لذلك يفترض أن عبارة تنحى جانبا، موجهة إلى المتلقي. ولكن كيف يتنحى المتلقي جانبا؟

هل تريدنا الفنانة أن نعبر من أمام أعمالها مثل الطيف أو الشبح، ونكتفي بالمتعة الجمالية دون الغوص عميقا والبحث عما وراء العمل؟ يبدو أن هذا ما أرادته الفنانة التونسية من العنوان.

ومن خلال توظيف التكرار، أبرزت بن رجب العلاقة المتداخلة بين مختلف العناصر المشاركة بفعل الإبداع؛ المواد الخام، والحرفة، والآلة، والمتلقي وبالطبع الفنان نفسه، مبرزة تقاليد الطباعة الخشبية المهجورة في الهند، حيث استغلت زيارة لها إلى هناك لجمع مجموعة من قوالب طباعة قديمة أحيلت إلى التقاعد، وركنت على رفوف ليعلوها الغبار، بعد أن استخدمت في الماضي لطباعة وحدات زخرفية ملونة على أقمشة حريرية في الغالب.

مئات من هذه الأختام الخشبية وزعت على لوحتين كبيرتين برتابة، تنقلنا إلى أجواء روحانية سحرية، خاصة بعد أن اختيرت لهما قاعة هي أشبه بمحراب للتعبّد.

ساعة الزرقة

في عملها "نسخ للمراجعة"، قدمت لينا بن رجب مجموعة مؤلفة من 81 شريحة تعرض من خلال فانوس سحري، مشهدا للسماء، كانت الفنانة قد التقطت ثلاث صور فوتوغرافية للمشهد خلال سفرها بالطائرة، وتزامن وقت التقاطها مع ظاهرة تعرف بـ"ساعة الزرقة"، وهي ظاهرة تحدث مرتين خلال اليوم، الأولى في اللحظة التي يتداخل فيها الشفق مع ضوء النهار، والثانية عند تداخل الغروب مع عتمة الليل.

وقامت الفنانة بنسخ الصور الفوتوغرافية الثلاث مستخدمة ناسخة زيروكس؛ كل صورة مطبوعة تنسخ منها نسخة؛ نسخة عن نسخة للسماء، ليبدو مشهد السماء يبهت مع كل نسخة.

بالطبع تؤدي عملية الاستنساخ المتكررة هذه إلى استنزاف حبر الطابعة، لتكون النتيجة شحوبا تدريجيا في النسخ.. للمرة الثانية نحن أمام عمل يحيلنا إلى الغوص في التناهي والمطلق.

> الفنانة لم تتنح جانبا، اسمها موجود على الأعمال بخط بارز، لذلك يفترض أن عبارة تنحى جانبا، موجهة إلى المتلقي

المعرض يتيح أمام المتلقي فرصة لاكتشاف آليات إنتاج متنوعة، متعقبا تطور الأدوات والحرف، ومن ثم اختفائها التدريجي. ونجحت الفنانة في توظيف الآليات التقليدية لتنتج عملا فنيا معاصرا، باعتماد التكرار البصري، وهو خدعة بصرية تنتهجها الحرف اليدوية القديمة وتعتمد عليها جماليا؛ في طباعة النسيج وفنون العمارة والخزف.

المتابع لتصريحات لينا بن رجب، لا بد أن يتساءل عن العلاقة بين أعمالها، السوبر حداثية والعقلانية، وبين أعمال الفنان التونسي الهادي التركي، التي تميزت رغم اعتمادها التجريد بنزعة تعبيرية.

الفنانة التونسية التي تقيم في باريس، كانت قد التقت الهادي التركي، وتقول إنها تأثرت بتقنياته وأسلوبه، واستلهمت الكثير من رؤيته الفنية وألوانه. ورغم المسافة الفاصلة بين أعمال التركي وأعمال بن رجب، هناك رابط قد لا يدرك للوهلة الأولى، إنه النزوع نحو المطلق واللانهائي.

ما إن يغادر المشاهد أرجاء الرواق، ويبتعد في أزقة سيدي بوسعيد الضيقة الملتوية، حتى يفكر بضرورة أن يعود في وقت آخر، ليعيد قراءة أعمال لينا بن رجب ثانية، رغم طلبها منه أن يتنحى جانبا.

جنرالات بدينون ومنحوتات فولاذية

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

إن صادف مرورك أمام واجهة صالة "أجيال" الفنية بالعاصمة اللبنانية بيروت، ستلفت نظرك مجموعة منحوتات فولاذية مهمة حضرت على هامش الثورة اللبنانية والعراقية على السواء كطلاسم فنية/ سحرية معنية بكل ما يجري على أرض الوطن.

ستقف طويلا أمام الواجهة، مستغربا افتتاح الصالة لمعرض فني في ظل ظروف قاسية تنذر باستمرارها لفترة طويلة.

كان لهذا المعرض عنوان مغناطيسي "آخر الجنرالات". عنوان كفيل بأن يستقطب انتباه وحضور كل مهتم بالفن المشحون بالأزمات السياسية والأمنية.

أما "اقتراح" كون هؤلاء الجنرالات غليظي البنية والروح هم "آخر" الجنرالات، كما يشير إلى ذلك عنوان المعرض الحاضر إلى جانب المنحوتات في واجهة الصالة، فله جاذبية قصوى لناحية قابليته الشديدة بأن يشكل نوعا من القراءة المستقبلية في أحوال جنرالات الموت بأشكاله المتنوعة، والذين سينقلب الزمان عليهم ناهضا من عجينة برونز الفنان العراقي معتصم الكبيسي.

عجينة مدعومة بمواد الأكسدة التي استخدمها الفنان كي يعطي تنويعات لونية مختلفة لمنحوتاته تراوحت ما بين تدرجات اللون البني والأخضر والأسود "المُعتق"، إن صحّ التوصيف.

وأشار بيان صالة "أجيال" إلى أن المعرض يضم "تماثيل برونزية لشخصيات في أوضاع كاريكاتيرية ممتلئة الجسم، ومشوهة، وخبيثة، وسخيفة منذ غزو العراق، حيث أصبح عمل الفنان، مثلما حياته الشخصية، يستند إلى مواجهة طغيان آلة القتل".

واللبناني الفضولي سيدخل إلى الصالة الفنية وستأسره الأعمال الفنية المعروضة، والتي تضم أكثر من ثلاثين عملا نحتيا بأحجام مختلفة تسرد مشاهد من الحياة الوجدانية والعملية لجنرالات أشداء.

غير أنه سيتناسى أو ينسى الخلفية التاريخية لهذا المعرض وكونه مستوحى من غزو أميركا للعراق وتواطؤ أفراد من الداخل العراقي معها، وسيجد في المعرض كل ما يصارع هو ضده في ساحات الثورة عاريا من الأسلحة غير الإيمان بمبادئ الثورة والصبر ضد ما يشيّد أمامه من جدران افتراضية وواقعية رفعتها ولا تزال السلطة لتزيد من "عجينة" الفساد التي لاكت بها لبنان أكثر من ثلاثين سنة.

أول ما يبهر في أعمال معتصم الكبيسي هو استطاعته أن يشيّد أجسادا مضغوطة كجدران إسمنتية تقف حينا أفرادا معزولة عن بعضها البعض ومُدرعة بلباس عسكري مُحكم الإقفال يوحي باستحالة اختراقه، وتقف حينا آخر مجتمعة كأدوات القتل وكمؤامرة وحدتها المصلحة المشتركة لهؤلاء الجنرالات.

قد يجد بعض النقاد أن الفنان توجه بعيدا عن الواقع لينحت هامات برونزية رمزية أكثر منها واقعية، غير أن زائر المعرض الذي هو على تماس مباشر وآني مع مأساته سيشعر إما أنه يتجول ما بين هؤلاء "الجنرالات" الواقعيين جدا وهم يتحركون على أرض الواقع، وإما أنه في حالة تصفح للأخبار اليومية عن تدميرهم الوطن، لا بل لمفهوم الوطن، على صفحات شبكات التواصل الاجتماعي.

أما المشاهد البسيطة التي ارتأى الفنان العراقي أن يصوّرها كجنرال يدفع أمامه عربة أطفال أو كآخر جالس على كرسي يتغوّط، فقد يرى فيها البعض نوعا من الكوميديا السوداء. لكن وعلى الأرجح، أن أصحاب الجرح الحي، لن يعثروا على أي فكاهة في الأمر، وإن كانت مجبولة بنبرة سوداء، بل سيجد فيها اجتياح الهمّ لجميع مرافق الحياة اليومية الروتينية حد الاختناق. وسيجد فيها كما ذكرنا آنفا أشكالا متنوعة من موت بطيء منشغل بتفعيل فصوله، وكأن شيئا لم يكن.

> جنرالات معتصم الكبيسي تحيل إلى صور كالحة لجيش من مخلوقات حجرية خارقة خارجة عن منطق الحياة البشرية وهشاشتها

كما يحيلنا جنرالات معتصم الكبيسي إلى صور كالحة لجيش من مخلوقات حجرية خارقة خارجة عن منطق وهشاشة الحياة البشرية، تسيّرها طاقة شريرة ما، كما في مشاهد سينمائية من أفلام الرعب والخيال العلمي.

غير أن الفنان العراقي يطمئننا، كما يكشف من خلال عنوان معرضه، بأنهم جنرالات النهاية. نعم، هنيئا لنا. إنهم آخر الجنرالات التي علينا مواجهتهم والثورة عليهم. ولكن من ناحية أخرى يمكن أن تكون هذه المنحوتات التي تملك العديد منها وجوها مخيفة لجماجم بشرية، هي إعلان عن بداية نهاية الحياة البشرية.

أغلب الظن أن الفنان يتيح لنا فرصة أن نستقرأ ما تشير إليه منحوتاته، كما يحلو لنا، أي أن نكون على يقين عجائبي بأن أصحاب تلك الهامات البشرية المرعبة والمستطيلة والمكتنزة هولا ستتحوّل في لحظة ما غير متوقعة إلى رماد مُذرّى في مهب رياح الثورات المُحقّة.

جيش بشري من جدران مصفحة